

دراسات الأدب المعاصر، السنة التاسعة، شتاء ١٣٩٦، العدد السادس والثلاثون: صص ١٢٩-١٤٤

بلاغة التقابل في أشعار أحمد مطر السياسية

على باقر طاهري نيا*

تاريخ الوصول: ٩٦/٣/٢٥

حسين الياسي**

تاريخ القبول: ٩٦/٦/٣٠

الملخص

أحمد حسن مطر (١٩٥٦م)، شاعر عراقي وثيق الصلة بالقضايا الدينية والاجتماعية والسياسية حيث لا يمكن فطام شعره عن واقع العراقى السياسى والإجتماعى، فأصبح الشاعر ينطق بلسان حال الأمة كلّها والإنسانية بأسرها مستخدماً مختلف الأساليب البلاغية فى بنية شعرها الذى يلتفت بالكثير من القضايا الانسانية، ومن ضمنها أسلوب التقابل الذى يعتبر جزءاً من علم البديع الذى يعنى بطلاء المبنى وزخرفته، فهو أن يؤتى فى الكلام بمعنيين أو أكثر ثمّ يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب. إنّ التقابل كيفية لغوية فى شعر أحمد مطر يعتمد عليه الشاعر فى قصائده وللتقابل إلى جانب دوره فى اثراء جانب المعنى يصبّ فى انسجام النص الشعري ومن ثمّ ليس التقابل تلاعباً بالألفاظ قدر ما هو محاولة لاثراء النص إلى جانب شعرنة التشكيل الشعري وذا هو سرّ لجوء الشاعر العراقى إلى التقابل فى شعره. والبحث هذا يروم دراسة بلاغة التقابل فى أشعار أحمد مطر، مستخدماً المنهج التوصيفى - التحليلى حيث يصف أسلوب التقابل نظرياً، ومن ثمّ عرض تحليلاً لمواضع التقابل وبلاغته فى أشعار أحمد مطر المختارة. الكلمات الدليلية: الشعر العربى المعاصر، البلاغة العربية، علم البديع، الثنائية السلبية والايجابية.

btaheriniya@ut.ac.ir

hsn_elyasi@ut.ac.ir

* استاذ فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران.

** طالب الدكتوراه فى فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران.

الكاتب المسؤل: على باقر طاهري نيا

المقدمة

تعرف البلاغة بأنها إصابة المعنى وحسن الإيجاز، وتعدّ علماً من علوم اللسان العربي. ومن أسباب نشوء هذا العلم: فطرة العرب وهم نشأوا على تذوق الأسلوب ونقده، حيث إنّ ملكة النقد عندهم موفورة، كما أنّ الله عزّ وجلّ تحدّاهم بالقرآن الكريم الذي وقفوا عنده عاجزين، كونه أبلغ من كلامهم، بسبب من ذلك دأبوا يبحثون عن وجوه هذا الإعجاز، وفهم أسرارهم، وإقامة الأدلة العلمية عليه، فكانوا أنّ وقفوا على خصائص البلاغة العربية، فتوسعوا في بحثها وتدوينها في مؤلفاتهم.

تأسست البلاغة على علوم ثلاث هي المعانى والبيان والبديع، «فإذا عنى علم المعانى بإقامة الصرح، وعنّى البيان بتقديم اللبّات ومواد البناء، فإنّ علم البديع يعنى بطلاء المبنى وزخرفته، فهو علم طرق التحسين الكلى» (حسان، ٢٠٠٠م: ٣٤٩). أمّا أسلوب التقابل وهو جزء من علم البديع يعنى أنّ يؤتى في الكلام بمعنيين أو أكثر ثمّ يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب. وقد أكثر الشعراء المعاصرون من التقابل في التشكيلية الشعرية والتقابل خاصة شعرية يكتنز قدراً كبيراً من الإشاعة والإيحاء وله التمظهرات الواسعة والفضفاضة في شعر الشاعر العراقي أحمد مطر وقد أكثر منه الشاعر لما يكتنزه من الطاقات التعبيرية وللدور الهام الذي يضطلع به التقابل في النص الشعري؛ فإذا كانت ابداعية النص الشعري ومدى نجاح الشاعر تقيّم بين حدّي البلاغة والقدرة في التعبير فإنّ للتقابل دوره المهم في التوصل إلى الابداعية والنجاح في التعبير ومن هنا أكثر الشاعر في بيئاته التشكيلية من التقابل. انعقد هذا البحث معتمداً على المنهج الوصفي - التحليلي لدراسة خاصية التقابل في اشعار أحمد مطر بوصفه من أهم التقنيات التعبيرية التي يهتم به الشاعر في خطاباته الشعرية برمتها.

خلفية البحث

هناك دراسات تناولت التقابل في النصوص المختلفة، منها «أسلوب التقابل في الربع الأخير من القرآن الكريم» لعماري عز الدين (٢٠١٠م)، و«بلاغة التقابل في روايات عز الدين جلاوجي» لنور السادات جودي (٢٠١٤م)، أمّا شعر أحمد مطر فإستأثر باهتمام الكتاب والدارسين وكتبت عنها مقالات كثيرة نخصّ بعضها بالذكر: «أسلوب شعر أحمد مطر

السياسي «شاکر عامری (١٥٠٢٠م) المطبوعة في مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها ودرس فيها الكاتب أسلوب الشاعر القصصي، والسخرية، وبعض الأساليب البلاغية. و مقالة «روابط بينامتنی در اشعار أحمد مطر» من الدكتور فرامرز میرزایی (١٣٨٨ش) والمقالة مطبوعة في مجلة «نثر پژوهی» وتطرق الكاتب إلى أشكال التناس في شعر أحمد مطر ومقالة «رسالت طنز در اشعار میرزازاده عشقی و أحمد مطر» من جواد سعدونزاده (١٣٨٨ش) وهي مطبوعة في فصلية «زبان و ادبیات عربی» بجامعة الفردوسی ودرس فيها الكاتب جماليات السخرية في شعر الشاعر ومقالة «مهم ترین عناصر معنایی در شعر أحمد مطر» وكتبها/الدكتور حامد صدقی (١٣٨٤ش) والمقالة مطبوعة في مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها وحسب بحثنا في الدراسات السابقة يلاحظ موضوع هذه الدراسة لم يكن محور أية من الدراسات المسبقة عن أشعار أحمد مطر. إذن يحاول البحث دراسة أسلوب التقابل في أشعار أحمد مطر لتبيين أوجه الجمال التي يضيفها التقابل على تلك الأشعار المختارة. يكمن أهمية هذا البحث في دراسة أسلوب مهم وهو التقابل في شعر أشهر شعراء العرب المعاصرين وهو أحمد مطر والسبب في اختيار هذا الموضوع يعود إلى حضور ظاهرة التقابل باعتبارها ظاهرة فنية ملفتة للنظر في أشعار أحمد مطر، بالإضافة إلى أثرها في دلالة قصائد الشاعر، ووقع أثرها في المتلقى.

أسئلة البحث

والسؤال المطروح في هذا البحث هو: ما مدى تأثير أسلوب التقابل في جمالية أشعار أحمد مطر السياسية؟

علم البديع

إن مصطلح البديع في المعاجم العربية جاء تحت مادة (ب.د.ع) تدور حول الجودة والحداثة؛ ففي لسان العرب: «بدع الشيء يبدعه بدعاً: أنشأه وبدأه، وبدع الركبة استنبطها بديع حديثة الحفر. والبديع والبدع: الشيء الذي يكون أولاً. وفي القرآن الكريم: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف / ٩) أي ما كنت أول من أرسل، قد أرسل قبلي رسل كثير.

والبديع: المحدث العجيب، والبديع: المبدع وأبدعت الشيء اخترعته لا على مثال» (ابن منظور، ١٩٩٨م: ٦-٨).

أمّا عن الدلالة الاصطلاحية للبديع عند البلاغيين فله أكثر من تعريف، وإن اختلفت لفظاً فإنّها متفقة معنى، ويمكن أن نقتصر منها في ذلك على تعريف واحد، فعلم البديع: «هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة على مقتضى الحال ووضوح الدلالة» (القزويني، ٢٠٠٢م: ١٩٠). ولقد أشار الجاحظ للبديع في كتابه «البيان والتبيين» حينما تكلم عن بعض الشعراء الذين اشتهروا في عصره، يقول: «والبديع مقصور العرب ومن أجله فاقت لغتهم، كل لغة وأربت على كل لسان، والراعي كثير البديع في شعره، وبشار حسن البديع والعتابي يذهب شعره في البديع» (جاحظ، ٢٠٠١م: ٦٢٠). ولقد كان لعلم البديع أهمية كبيرة عند البلاغيين، يبرهن على ذلك كثرة الدارسين له على مرّ العصور، فلا يكاد يخلو مؤلف واحد من مؤلفاتهم إلّا وهو يعرض له إمّا بالكلام المستفيض، أو بالإشارة إلى بعض جوانبه، ويمكن أن نتبين ذلك من خلال تتبع دلالة لفظة "البديع" عند بعض أصحاب هذه المؤلفات.

وعلم البديع له قسمان: قسم يرجع التحسين فيه إلى اللفظ، وهو ما يسمّى "بالمحسنات اللفظية"، وقسم يرجع التحسين فيه إلى المعنى وهو ما يسمّى "بالمحسنات المعنوية"، ولقد تمكّن البلاغيون من حصر أنواع كل قسم من القسمين مع تناولها بالتعريف والتمثيل لها بالشواهد المختلفة.

أمّا المحسنات المعنوية، فهي المطابقة، والمقابلة، والمشاكلة، ومراعاة النظير، والمزاوجة، واللف والنشر، والجمع، والتفريق، والتقسيم، والجمع مع التفريق، والجمع مع التقسيم، والجمع مع التفريق والتقسيم، والإيهام، وتأکید المدح بما يشبه الذم، والتوجيه، وسوق المعلوم مساق غيره، والاعتراض، والاستتباع، والالتفات، وتقليل اللفظ. والمحسنات اللفظية هي التجنيس، والاشتقاق، ورد العجز على الصدر، والقلب، والسجع والترصيع.

التقابل في اللغة والاصطلاح

المقابلة في «لسان العرب» هي «قابل الشيء بالشيء مقابلةً وقبالاً: عارضه، إذا ضمنت شيئاً إلى شيء قلت: قابلته به، ومقابلة الكتاب بالكتاب مقابله به: معارضته،

والمقابلة: المواجهة، والتقابل مثله، وهو قبالك وقبالتك: أى تجاهك»(ابن منظور، ١٩٩٨م: ٥٦-٥٧). وقال/بن فارس: «القاف والباء واللام أصلٌ واحدٌ صحيح، تدلّ كلّها على مواجهة الشيء للشيء»(ابن فارس، لا تا: ٥١). وقال/الزمخشري: «لقيته قبلاً وقُبلاً: مواجهةً وحياناً»(الزمخشري، ١٩٩٦م: ٣٥٠). على هذا، فإنّ المقابلة في اللغة تدور على المواجهة والمعانية، وقد يكون ذلك بالتضاد أو بالموافقة. ومما تقدّم عرضه، ومن تتبع معنى كلمة "قابل" في المعاجم سألفة الذكر يتبين أنّ هذا المعنى لا يخرج في إطاره العام عن المواجهة.

أمّا في الاصطلاح فله تعاريف متعددة عند البلاغيين، فقد عرفها/العسكري بأنّها: «إيراد الكلام ثمّ مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة»(العسكري، لا تا: ٣٧١). وعبر عنه/الباقلاني: «المقابلة هي أن يوفق بين معانٍ ونظائرها والمضادّ بضده»(الباقلاني، ١٩٩٦م: ٦٨). ويقول/الرازي: «المقابلة هي أن تجمع بين شيئين متوافقين بين ضديهما، ثمّ إذا اشترطتهما بشرط وجب أن تُشترط ضديهما بضدّ ذلك الشرط»(الرازي، ٢٠٠٣م: ١٥٠). وجاء في الإيضاح «أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثمّ بما يقابلها أو يقابلها على الترتيب»(القزويني: ٤٨٥). على هذا، فإنّ هذه التعريفات تنظر إلى التقابل من جهة الموافقة أو من جهة المخالفة بين شيئين فأكثر، فالمقابلة قد تكون في المتوافقات أو المتخالفات. والفرق بين الطباق والمقابلة هو أنّ يكون الطباق إلّا بين الأضداد، والمقابلة تكون بين الأضداد وغير الأضداد. ولا يكون الطباق بين الضدّين فقط، والمقابلة تكون بين أكثر من اثنين.

تعريف بالشاعر

أحمد حسن مطر شاعر عراقي ولد في عام ١٩٥٦م، عاش طفولته في قريته التنومة، ومن ثمّ انتقل إلى محلة الأصمعي على شط العرب في صباه. وهو كأطفال العراق عانى الفقر والحرمان، ممّا حال بينه وبين مواصلة الدراسة المنتظمة، فلجأ إلى ما يعوض ذلك من علوم وثقافة لا منهجية اعتمد في تحصيلها على نفسه. وعندما تفتحت مداركه وتوسعت ثقافته، أصبح لا مناص من مواجهة الواقع الذي يعيش، ممّا دفع به في أتون معركة غير متكافئة، مع النظام القائم الذي يرى من يقف في طريقه حجر عثرة، ممّا حوّل

حياة الشاعر تحولاً نوعياً، حياة سماتها المطاردة والفرار وعدم الاستقرار، ثمّ اللجوء والتنقل من منفى إلى منفى، فاستقرّ في الكويت يواصل تحديه للواقع المرير، كاشفاً من خلال شعره الغطاء عن المعاناة التي تحياها الشعوب، ليس في بلده فحسب، وإنما في كلّ مكان ينطق أهله بالضاد، فأصبح وثيق الصلة بالقضايا الدينية والإسلامية عامة والقضية الفلسطينية خاصة، فأصبح الشاعر ينطق بلسان حال الأمة كلّها والإنسانية بأسرها (غنيمة، ١٩٩٨م: ٤١-٥٤).

التقابل في أشعار أحمد مطر

إنّ الشاعر أحمد مطر أفاد من مختلف الأساليب البلاغية في إيصال رسالته إلى أحرار العالم، ومن ضمن تلك الأساليب للتقابل دور بارز في جمالية أشعار أحمد مطر؛ يلاحظ في أشعاره التقابلات الايجابية والسلبية المتمثلة في الحق والباطل؛ الحق في القصائد المدروسة فقد يتمثّل في الله سبحانه وتعالى، والقرآن الكريم والشعب؛ أمّا الباطل فهو متمثل في الحكام، والظالمين والعرب في العصر الحاضر. ويمكن تقسيم التقابلات المدروسة كما يلي:

١. التقابل الايجابي - السلبي

يلاحظ في هذا النوع من التقابل طرفين؛ طرف ايجابي يهتم بالحق ويقف في جانب الشعب، وطرف سلبي يميل إلى الباطل واقف أمام الشعب؛ مثل هذا التقابل بارز في قصيدة «ولادة الأرض» التي يقابل فيها الشاعر بين الله وهو الخالق وبين الحكّام وهم المخلوق، حيث ينشد قصيدته موبّخاً الطغاة والحكّام قائلاً:

هو من يبتدئ الخلق
وهم من يخلقون الخاتمات
هو يعفو عن خطايانا
وهم لا يغفرون الحسنات
هو يعطينا الحياة دون إذلال
وهم، إن فاتنا القتل

يمنون علينا بالوفاة

(مطر، ١٣٠٢٠م: ٤٨)

بدأ الشاعر منذ مطلع القصيدة يقابل بين الله سبحانه وتعالى وبين الذين يدعون بأنهم هم الربّ يدبرون حياة الشعب، فيقابل بينهما، ومن خلال هذا التقابل يبيّن مدى البون الشاسع بينهما؛ حيث يقول الله هو الذى بدأ بخلقة الكون والملوك والطغاة خلقوا خواتيم حياة الشعب، والله هو الذى يغفر الذنوب وخطايا الناس، ولكن الطغاة إنْ نقوم بفعل حسن لا يغفروننا، الله سبحانه وتعالى هو الذى يعطى الناس الحياة من دون المنة والإزدراء، ولكن الطغاة لو لم يستطيعوا أنْ يقتلنا يمنون علينا بالوفاة. فعبر هذا التقابل أراد الشاعر أنْ يبيّن واقع الحكّام الذين يدعون بأنهم يريدون الخير للناس، ولكن فى الواقع يفعلون ما يفعلون بحق الشعب، إذْ الملوك ظلوا واقفون أمام الله سبحانه بأفعالهم وأفكارهم. فالله هو الحق والملوك باطل بما فعلوا فى حق الشعب الأبرياء. وقد واصل الشاعر تقابله فى القصيدة بين الشعب والحكّام قائلاً:

ربنا قال: بأنّ الأرض ميراث التقاة

فاتقينا وعملنا الصالحات

والذين انغمسوا فى الموبقات

سرقوا ميراثنا منا

ولم يبقوا لنا منه سوى المعتقلات

(مطر، ١٣٠٢٠م: ٤)

عاد الشاعر إلى الموضوع الرئيس فى القصيدة وهو ميراث الأرض، فقد يذكّرنا قول الله سبحانه فى القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء/ ١٠٥) بأننا كالشعب المظلوم اتقينا وعملنا أعمال صالحة أملأ بأنْ نرث الأرض كما وعد الله، لكنّ الأرض أصبحت ميراثاً للذين غرقوا فى المعاصى، وما عثرنا إلّا على المعتقلات. فالحق مع الشعب الذين راحوا على صراط الحق للوصول إلى النجاح؛ ولكن الباطل هو الحكام لأنهم رغم أعمالهم الشنيعة غصبوا ميراث التقاة الذى وعده الله للصالحين. وفى قصيدته «الدولة» يبرز تقابلاً بين الله سبحانه وتعالى كمعطى الكوثر وبين الدولة، حيث يقول الشاعر:

قالت خبير شبران ...
ولا تطلب أكثر
لا تطمع في وطن أكبر
هذا يكفي
الشرطة في الشبر الأيمن ..
والمسلخ في الشبر الأيسر
إنا أعطيناك "المخفر"
فتفرغ لحماس وانحر
إن النحر على أيديك سيغدو أيسر

(مطر، ١٣٠٢٠م: ٦٦)

وشتان ما بين الصورة في "الكوثر" وتلك التي في قصيدة "الدولة"، وشتان ما بين المقابل لعطاء الله والمقابل لعطاء الدولة. ففي الكوثر صلاة وعبادة وإطعام للناس، وفي "الدولة" من وأذى ونظام بوليسي وأنظمة طوارئ ومسالخ فاغرة أفواهها، ومخافر، وقتل وملاحقة للرافضين من الشعب، حيث السلطة أقدر على تنفيذ تلك المهمة بحق حماس وغيرها من الشعب عندما وقف خبير عاجز عن النحر. فإذا كان المعطى هو ربّ السماوات والأرض فعطائه عظيم لأنّ المعطى عظيم، أمّا إذا كان المعطى كما في القصيدة هو الدولة فعطائها الصغير؛ لأنّ المعطى صغير لا يأتون الناس نقيراً والعطاء هو أصغر من ثقب نملة. وهذا التقابل بارز من خلال تناص الشاعر قسم من سورة الكوثر المباركة، فهو قام بالتقابل بين الله وبين الدولة وكلاهما معطيان، أمّا الله فهو الحق يعطى الخير والبركة والكوثر؛ غير أنّ الدولة هي الباطل تعطى المخفر والذلّ والهوان. وفي قصيدة أخرى باسم «هات العدل» الشاعر دعى الحاكم والحكومة إلى العدل قائلاً:

أَمَّا الْحُكْمُ .. فَأَمْرٌ ثَانُ
أَمْرٌ بِالْعَدْلِ تُعَادِلُهُ
لَا بِالْعِمَّةِ وَالْقُفْطَانِ
تَوْقِنُ أَمْ لَا تَوْقِنُ .. لَا يَعْنِينِي
مَنْ يُدْرِينِي

أَنَّ لِسَانَكَ يَلْهَجُ بِاسْمِ اللَّهِ
وَقَلْبِكَ يَرْقُصُ لِلشَّيْطَانِ!

(مطر، ١٣، ٢٠:م:١٦)

لا فرق عند الشاعر أيوقن الحاكم أم لا يوقن، ما يهّمه هو أنّ الحاكم بلسانه يلهج باسم الله، وقلبه مأوى للشيطان يرقص فيه؛ إذًا قابل الشاعر بين ما في لسان الحاكم وما يدور في قلبه والنتيجة تشير إلى وجود البون الشاسع بين ما يعتقد به الحاكم وما يظهر به. وقد استمرّ الشاعر التقابل بقوله:

الإيمان الظالم كفر
والكفر العادل إيمان!

(مطر، ١٣، ٢٠:م:٢٢)

قابل الشاعر بين إيمان الظالم والعادل ويقابل بعضهما مع بعض والنتيجة تشير إلى أنّ إيمان الظالم هو كفر، أمّا كفر العادل هو إيمان؛ والسبب في هذا القياس بيان أهمية وجود العدالة في الحكومة، كما قال أنفأً توقن أم لا توقن لا يعنيني، بل المهم هو الإتيان بالعدل بين الشعب. وللتأكيد على فكرته ورسوخها في بال القارئ يقول:

لا أسأل عن شكل السلطة
أسأل عن عدل السلطان

(مطر، ١٣، ٢٠:م:١٦)

فالشاعر في هذه القصيدة جنّد كلّ ما في يده ليشير إلى مدى أهمية العدل في المجتمع. وله قصيدة في أهمية حرية التعبير باسم «قلة الأدب» حيث يقابل فيها ما قاله القرآن الكريم وما قالته وسائل الإعلان الحكومية منشداً:

قرأتُ في القرآن:

"تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ"

فأعلنتُ وسائلُ الإذعان:

"إنَّ السكوتَ من دَهَبٍ"

(مطر، ١٢، ٢٠:م:١١)

يقارن الشاعر بين ما يقوله القرآن الكريم في حقّ الطغاة وهو ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾

وَتَبُّ (المسد ١/) وماتقول فى مقابله وسائل الإعلان بأنّ "السكوت من ذهب". فتحيّر الشاعر والشعب بأن هل عليهم أن يقولوا ما يقول القرآن الكريم، أم عليهم السكوت فى مقابل الطغاة! لكنّ الشاعر يعلن بأنّه يحبّ الفقر على غرار السخرية ولا يحبّ الذهب الصادر عن السكوت أمام الطغاة فيقول:

أحببتُ فقري .. لم أزلُ أتلو
"وَتَبُّ"

ما أغنى عنه ماله وما كسب"

(مطر، ١٣٠١٣م: ١١)

أمّا نتيجة عدم سكوت الشاعر فقد صودرت حنجرته كما وصودر القرآن الكريم، فيقابل الشاعر بين سبب مصادرة حنجرته وسبب مصادرة القرآن قائلاً:

فصودرت حنجرتى

بجرم قلة الأدب

وصودر القرآن

لأنه .. حرّضنى على الشغب

(مطر، ١٣٠١٣م: ٢٨)

من يفتح فمه من دون رضى الحكومة فهو قليل الأدب وفى مقابل هذه الجريمة تصادر رأيه الحكومة وتصادر حنجرته؛ كما صودر القرآن من قبل الحكومة لأنه بآياته يهدى الناس ويحرّضهم نحو لمواجهة الظلم. وفى قصيدة أخرى مسماة بـ «زمن الحواسم» قابل الشاعر بين أهمية الشاعر لعرب الأمس وعرب اليوم، ففى وصف عرب الأمس يقول:

عَرَبُ الْأَمْسِ الْغَوَاشِمُ

عِنْدَمَا يُوَلَّدُ فِيهِمْ شَاعِرٌ

كَانُوا يُقِيمُونَ الْوَلَائِمُ

وَيُرِيقُونَ دَمَ الْأَنْعَامِ

مَا بَيْنَ يَدَيْهِ

وَيَفِرُّونَ مِنَ الدُّلِّ إِلَيْهِ

(مطر، ١٣٠١٣م: ٢٥٣)

يشير أحمد مطر بقوله إلى منزلة الشعر والشعراء عند العرب القديم، فقد كانت له مكانة رفيعة خاصة عند الناس. فكان إذا نبغ شاعرٌ تحتفل به قبيلته، وتدق له طبول الفرح وتباهى به عند القبائل الأخرى، فنبوغ الشاعر عند القبيلة أعظم درجة من الخطيب المفوّه، ويكاد يكون أعظم درجة من رئيسها وفارسها؛ ذلك لأنّه يمجد قبيلته ويرفع من قيمتها عند أعدائها وعند القبائل الأخرى ويحطّ من قيمة أعدائها، فهو المنافح والمدافع عنها وهو الذي يسجّل لها تاريخ مفاخرها وأمجادها ويباهى بمآثرها ويعظّم من شأنها ويهول على أعدائها. فهل بقي الأمر هكذا بالنسبة لتبجيل الشاعر أم لا؟!

غَيْرَ أَنَّ الْأَمْسَ وَتَى
وعلى الأفقِ تجلّى
عَرَبُ الْيَوْمِ (الحواسيم)
فإذا همّ
عندما يُولّد، بالرّشوة،
في أكياسهم.. صَوْتُ الدّراهمِ
يذبّحونَ الشّاعِرَ الحُرَّ
فداءً لِلبهايمِ

(مطر، ٢٠١٣م: ٢٥٢)

فيجيب الشاعر بأنّ الأمس قد ولى؛ لأنّ العرب اليوم لا يهتمّ بالشاعر، والشاعر لا يمكنه أن يعبر عمّا في مجتمعه حرّاً، بل السلطة هي التي تخطط له الطريق ويأمره بأن يقول ماذا، ويسكت عن ماذا. إذاً زمن حرية شاعر مضت وانتهت، فلا مجال لحرية التعبير في المجتمع الحالي وذلك بفضل السلطة والإرشاء.

٢. التقابل السلبي - السلبي

يلاحظ في هذا النوع من التقابل طرفين؛ وكلاهما يميلان إلى الباطل واقف أمام الشعب؛ ومثل هذا التقابل بارز في قصيدة مسماة بـ «سلاطين بلادى» بدأ يقابل بين السلاطين وأعداء بلاده؛ والمعقول أن يكونا ضدّان، حيث العدو لا يريد عمران البلد، ولكن

السلطان لابدّ من أن يحاول في تنمية بلده وشعبه؛ لنرى هل يكون الأمر هكذا كما نتوقعه أم لا؟! فاليفص الشاعر حال العدو قائلاً:

الأعدى،
يتسلون بتطويع السكاكين،
وتطبيع الميادين،
وتقطيع بلادى،
وسلاطين بلادى
يتسلون بتضييع الملايين،
وتجويع المساكين،
وتقطيع الأيادى،

(مطر، ١٣٠٢٠م: ٢٦)

يفص الشاعر حال العدو والسلطان في بلاده، حيث أن العدو يقوم بتقطيع بلاده، وفي المقابل يتوقع الشاعر أن يقف سلاطين بلاده أمام العدو، ولكن يلاحظ بأن السلاطين يحاولون تضييع الملايين، وتجويع المساكين، وتقطيع أيادى الشعب من حقوقهم. هنا المتلقى يتوقع أن يلاحظ التقابل بين العدو والسلطان، لكن حدث تقابلًا سلبي - سلبي بينهما؛ لأن كلاهما يحاولان استثمار البلاد. ويواصل تقابله متعجبًا بالمجتهدين في بلاده حيث اكتشفوا آية القطع، ولكن رغم وجود الأعداء لم يكتشفوا آية واحدة من آيات الجهاد؛ حيث لا يوجد دافع يدفع الشعب والحكومة نحو الجهاد والحرية:

عجبا، كيف اكتشفتم آية القطع،
ولم تكتشفوا رغم العوادي
آية واحدة من كل آيات الجهاد

(مطر، ١٣٠٢٠م: ٢٠)

وفي قصيدة «بين يدي القدس» يعتذر أحمد مطر القدس لأنه لا يمكنه أن يدافع عنها قائلاً:

يا قدسُ يا سيدتى معذرةً فليسَ لى يدانُ
وليسَ لى أسلحةً وليسَ لى ميدانُ

كلُّ الذي أملكه لسانٌ
ومن ثمَّ يقابل بين ثمن العمر والكلام قائلاً:
والنطقُ يا سيدتي أسعاره باهظةً،
والموتُ بالمجان
سَيدتي أخرجتني
فالعُمُرُ سِعرُ كلمةٍ واحدةٍ وليس لي عُمرانُ

(مطر، ٢٠١٣م: ٢٢)

فقد قابل /أحمد مطر بين ثمن عمر الانسان في مقابل ثمن الكلام؛ قال الشاعر أنفًا ليست لدى أسلحة كي أدافع عنك يا قدس، كل ما أملكه هو الكلام؛ أمّا الكلام ثمنه باهظ ولكن حياة الانسان بالمجان، لو أقول كلمة واحدة في الدفاع عنك يا قدس فلا بد من أن أدفع في مقابله عمري كله، وأنا ليس لي عمران، كي أدفع عمراً للكلمة واحدة وأحتفظ بعمري الثاني لنفسى. رغم ضرورة وجود الحرية في البلاد ولكن في بلد الشاعر لم نجد الحرية فلا يستطيع أن يدافع عن القدس بكلامه لأنّ سعر الكلام باهض، أن حياة الانسان فلا قيمة لها.

نتيجة البحث

من خلال ما تقدم يمكننا أن نوجز أهمّ النتائج التي وصل إليها البحث كما يلي:
لو تأملنا أشعار /أحمد مطر وأمعنا النظر فيه، لوجدنا كثرة اعتماد الشاعر على الصور البلاغية ومن أهمّها هي التقابل بوصفه عنصراً من عناصر الصورة الشعرية في معظم الموضوعات التي عالجهها، وعلى الوجه الخصوص في الشعر السياسي. فهو بدأ يقابل أحياناً بين السطة والعدو، وأحياناً أخرى يقابل بين الانسان العربي قديماً وحاضراً ليبين مدى البون الشاسع بين طرفي التقابل.

فقد درس نوعين من التقابل في شعر /أحمد مطر أكثر تأثيراً على تشجيع الشعب للدفاع عن الحق والكفاح بالباطل؛ الأول هو التقابل الايجابي - السلبى لاحظناه بين الله وهو الخالق وبين الحكام كالمخلوق، بين الشعب وهم مظلوم وبين السلطة الظالمة، بين ظاهر السلطة وباطنها، بين الحرية في القرآن الكريم و الحرية في وسائل الاعلان؛ أمّا

الثانى فهو التقابل السلبى- السلبى بارز عند كلام الشاعر عن السلطان والعدو الخارجى وكلاهما يظلمان بحق الشعب والوطن، وبين قيمة حياة الانسان وقيمة الكلام فى الحربة. إذأ يمكن القول بأن إجراء التقابل أصبح أسلوبا للشاعر حينما يريد أن يترسخ كلامه فى ذهن القارئ، وحينما يريد أن يؤكد على أمرٍ ما كثيرا ما يتعلق بأمر الشعب والحكومة. وقد أدى استخدام أحمد مطر أسلوب التقابل فى أشعاره إلى إغناء نصه الشعرى بشحنات دلالية مميزة توضح المظالم والمصائب فى الدول العربية التى يصيب به الشعب العربى ويعانى منه. برع الشاعر فى اختيار طرفى المقابلة وكثيراً ما يمزج مقابله بنوع من السخرية والنقد اللاذع وبهذا الأسلوب يهجم على الحكام والسلطة والأجهزة العالمية فى شعره لتدل على مخالفته مع الحكام والسلطات والمستكبرين. وللتقابل فى شعر أحمد مطر أثر فى المعنى والأسلوب، فالمعنى يزداد وضوحاً، وقوةً بوضوح الشئ وما يقابله من ضد. وكلامه يكتسب جرساً موسيقياً، ونغماً جميلاً يؤثر فى النفس، وينقل الشعور، وبذلك الأسلوب يخاطب الشاعر العقل والعاطفة فى وقتٍ واحد.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

إبن فارس، أحمد بن زكريا. لا تا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج٥، دار الإسلامية.

إبن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري. ١٩٩٨م، لسان العرب، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر.

أحمد قاسم، محمد وديب، محي الدين. ٢٠٠٣م، علوم البلاغة، لبنان: المؤسسة الحديثة للكتاب.

الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب. ١٩٩٦م، إعجاز القرآن، تعليق صلاح بن محمد بن عويضة، بيروت: دار الكتب العملية.

تمام، حسان. ٢٠٠٠م، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، القاهرة: عالم الكتب.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. ٢٠٠١م، البيان والتبيين، تحقيق درويش جويدي، بيروت: المكتبة العصرية.

الرازي، محمد بن عمر. ٢٠٠٣م، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق سليمان حموده، القاهرة: دار المعرفة الجامعية.

الزمخشري، محمود بن عمر. ١٩٩٦م، أساس البلاغة، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.

العسكري، الحسن بن عبد الله. لا تا، الصناعتين، تحقيق مفيد قمحية، القاهرة: دار الكتب العلمية.

غنيم، كمال. ١٩٩٨م، عناصر الإبداع الفني، القاهرة: مكتبة مدبولي.

الفزويني، جلال الدين محمد بن عبدالرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد. ٢٠٠٣م، الإيضاح في علوم البلاغة، بيروت: دار الكتب العلمية.

مطر، أحمد حسن. ٢٠١٣م، الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.

Bibliography

Ahmed Kassem, Mohamed, Deeb, Mohieddin, Sciences of rhetoric, Lebanon: Modern Book Foundation, 2003.

Ibn Fares, Ahmed bin Zakaria, Dictionary of Language Standards, Achievement: Abdulsalam Mohamed Haroun, C5, BD, Islamic Dar,

Ibn Manzour, Gamal El Din Mohamed Ben Makram El Ansary, San El Arab, Cairo: The Egyptian General Establishment for Information, Publication and Publication, 1998

Al-Baqlani, Abu Bakr Muhammad ibn al-Tayyeb, Ijaz al-Qur'an, Commentary: Salah bin Mohammed bin Oweida, Beirut

Tammam, Hassan, The Origins of an Epistemological Study of Arab Thought, Cairo: World of Books, 2000.

- Al-Jahiz, Abu Othman, Amr ibn Bahr, Al-Bayan and Taibeen, Darwish Juweidi, Beirut: Modern Library, 2001.
- Al - Razi, Muhammad Bin Omar, End of Briefness in Knowledge of Miracles, Achieving: Sulaiman Hamouda, Cairo: Dar Al - Maarefah University, 2003.
- Zmakhshari, Mahmoud Ben Omar, Asas al-Balagha, Beirut: Lebanon Publishers Library, 1996.
- Al-Hassan, Al-Hasan Bin Abdullah, Al-Sna'atin, Achieving: Mufid Qamhiyya, Cairo Ghoneim, Kamal, Elements of Artistic Creativity, Cairo: Madbouli Library, 1998.
- Al-Qazwaini, Jalal al-Din Muhammad bin Abdulrahman bin Ammarben Ahmad bin Mohammed, Explanation in the Sciences of Al-Balajah, Beirut: Dar al-Kuttab al-Alami, 2003.
- Matar, Ahmed Hassan, The Complete Poetry Works, Beirut: Knows of Knowledge for Publishing and Distribution, 2013.